البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«١»

لعل من الأهمية بمكان ـ وتكاليف رحلة البناء والإنماء، جهودٌ تبذل، وأموال تنفق، وعقول تعمل، وسواعد تتحرك هنا وهناك بعلم وإفادة من كل المعطيات الحديثة.. لعل من الأهمية بمكان أن تتفتح البصائر على التحديد الذي ألمحنا إليه فيما سبق، وأن البناء العميق في جذوره، المتسع لكل الميادين في أبعاده وشموله: هو البناء الذي لا تغفل فيه الأمة ـ مع الأخذ بالأسباب ـ عن أمور الآخرة وقبول العمل عند الله تبارك وتعالى. فهو ـ جل شأنه ـ إنما يتقبل من المتقين؛ فما لم يقم العمل على قاعدة من الإيمان بالله وتقواه: فليس من القبول في شيء.

وقوله عز وجل في شأن الكافرين وما يكون لهم يوم القيامة:﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان :٢٣] واضح في هذا الذي نقول: إذ كان من عدله سبحانه أنه لم ينف لهم ما عملوا من الخير في الدنيا من صلة رحم، وإكرام ضيف، وإغاثة ملهوف. وهي أخلاق يقدرها الإسلام حق قدرها، ولكن هذا شيء، وما يكون من وزن عند الله للأعمال شيء آخر.

وهذا ـ في الحقيقة ـ أمر جمٌّ الفائدة في دنيا الواقع، فالمعلم القرآني يهدينا إلى تبيّن الأمور، والحرص على سلامة المنهج، وما يجب أن يتوافر فيمن يعتمد عليهم في وضع المناهج للتعامل مع حركة الحياة موضع التنفيذ في كل ميدان وفي كل زاوية من زوايا المجتمع تربيةً وتعليماً وإعلاماً، وتنظيماً لشؤون الثقافة والاجتماع والاقتصاد، وعملية التطوير ـ جملة ـ إلى ما هو الأفضل، لأمة تواجه ما تواجه من التحديات وهي تحمل الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام.

ومن النماذج العملية التي قدّمها لنا القرآن الكريم على هذه الساحة: ما جاء في سورة التوبة من قوله تعالى في الآيتين السابعة عشرة والثامنة عشرة: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

لقد عمرت قريش الكعبة عمارة مادية ـ ما في ذلك ريب ـ وكانت تعتز بذلك، وما هو منه بسبيل، أيَّما اعتزاز، ولكن الآية القرآنية تنفي عن المشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾.

لقد نفى عنهم ذلك على هذه الطريقة في التعبير التي يسميها العلماء نفي الشأن، فليس من شأن المشركين الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر بما يقولون وبما يفعلون من الشرك وما يتصل به.. أجل ليس من شأنهم ذلك؛ إذ لا يستوي في ميزان العقل السليم: أن تدَّعى عمارة بيت الله، ويعبد غيره، وتقامَ الأوثان في ظل بيته وهو الكعبة. وبعد بيان العلة في هذا، قال جل جلاله: ﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

لقد رفعوا قواعد البيت بالحجارة، ولكنهم ولغوا في جحيم المخالفة عن العمارة الحقيقية بالتوحيد، وملؤوه بالأوثان والعياذ بالله.

* * *

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٢»

أشرنا فيما سلف من القول إلى واحد من النماذج العملية التي قدمها القرآن على ساحة الأهمية القصوى لعقيدة التوحيد، وضرورة بناء الأعمال عليها، وأثرِ ذلك في قبول العمل عند الله عز وجل، وأنه ـ تباركت أسماؤه ـ إنما يتقبل من المتقين.

وذلكم ما جاء في سورة التوبة من نفي عمارة مساجد الله أو مسجد الله عن المشركين، وبيان أنه ليس من شأن من يشهدون على أنفسهم بالكفر ويجاهرون عقيدة التوحيد بالعداوة أن يعمروا بيتاً لتوحيد الله وعبادته، ومن أجل ذلك فما صدر منهم من العمارة المادية لا وزن له عند الله تبارك وتعالى في الآخرة لأنه عمل خارجٌ عن القاعدة الإيمانية التي يجب أن يرتكز عليها وهي شرط قبوله عند الله، وبرهان أنه عمل يتسم بالخير والصلاح ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[المائدة:٢٧] .

فهؤلاء الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر قولاً وعملاً وسلوكاً: يكون جزاؤهم يوم القيامة حبوط أعمالهم وهلاكها حتى كأن لم تكن، وأكثر من هذا: هم في النار خالدون، ولن ينجيهم من عذاب الله الذي حَقَّ عليهم بكفرهم وضلالهم أنهم قاموا بعمارة مسجد الله أو مساجد الله. وجدنا ذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ ثم بين سبحانه أن العمارة الحقيقية وراء ذلك لن تكون إلا من أولئك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامتلأت قلوبهم خضوعاً لله عز وجل لا للأوثان، وعسى أن يكون هؤلاء من المهتدين.

لقد نطق القرآن بهذه الحقيقة والمسلمون يتحركون في ميادين البناء، تثبيتاً للعقيدة، وعلماً، وتعليماً، وجهاداً في سبيل الله، وإعطاءً لشمول الإسلام مختلف،

جوانب الحياة، أبعاده الحقيقية عند التطبيق على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع، وكل ما ينتظم أمور الدولة في شؤون الثقافة والاقتصاد والاجتماع، وكل ما يحكم علاقتها بالمسلمين وغير المسلمين في الداخل، وعلاقتها بالدول والناس الآخرين في الخارج.

وإذن فكل لبنة من لبنات البناء، وكلُّ طاقة ترادُ تنميتُها لتُسهم في دفع القافلة، واستمرارِ مسيرتها الخيرة.. ملحوظ فيها هذه الحقيقة، وهي أن العمل المنظورَ إليه في ميزان الله الذي لا يعول، هو ذلك العمل الذي نبت على نور عقيدة التوحيد وتقوى الله، أما ما وراء ذلك: فيصدق فيه قول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان:٢٣]

ولقد يكون من الخير أن نشير إلى أن هذه الحقيقة التي حملها المعلم القرآني في نفي عمارة المسجد والمساجد عن المشركين، جديرة أن تفتح بصائر الأمة على كل صغيرة وكبيرة وهي تعزم عزمَها على أن تبني قوتها الذاتية كيما تكونَ يقظة عند تقدير الأمور وتقويم المخططات والأعمال، فلا تؤخذ بالمظاهر الكاذبة، ولا يلبَّس عليها بزخرف القول والشائعات، وفي الوقت نفسه هي جديرة أن تكون المؤشر العميق لما يجب أن يكونَ القاعدةَ عند بناء الإنسان؛ فبناء القوة الذاتية التي تُخرج الأمة من وهدة الضعف في كثير من الميادين: كفاؤه جيل يُبنى بعمق وشمول متكاملَين على عقيدة التوحيد لتكون معتصمه عند المغريات، وعامل ثباته عند الشدائد.

وعندها يؤدي المعلم القرآني دوره الطبيعي ويعطي ثمراته على الطريق المبتغاة.

وعندها أيضاً يأخذ التخطيط والجهد والعلم التقني والمال الموقع الطبيعي في البناء الذاتي المنتج بعيداً عن العبث وإضاعة حقوق الأمة وقل مثل ذلك في كل الطاقات والإمكانات.

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٣»

القضية التي كنا نحوّم حولها من قريب: أخذاً من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ هذه القضية وضعت العقل على المسار الصحيح ـ هنا ـ بعيداً عن التناقض؛ إذ كيف يعمرُ مساجدَ الله التي تبنى على اسمه وحده لا شريك له: من كفر بالله وعدل به فاتخذ من دونه وثناً يعبده، وجعل لربه الذي أوجده من العدم وخلقه في أحسن تقويم نداً يتخذه إلهاً.. إن ذلك أمر لا يُقْبَلُ في ميزان العقل السليم، وهو التناقض الفاضح بعينه.

وعلى هذا: كم تبدو الحاجة ماسة لأخذ العبرة من عطاء الآية دفعاً للتناقض عند التقويم الشامل لعلاقة الأمة بالآخرين، وارتباط ذلك بمسيرة البناء والإنماء.

ولقد نجد في سورة الأنفال عوناً لنا في إعطاء هذه النقطة مزيداً من الوضوح، كيما يكون الدرس ضياءً على طريق الواقع الذي تشعبت فيه مسالك البناء في أسسه وأهدافه ووسائله، وكذلك في ساحاته وميادينه والطاقات المؤهلة لأن تؤتمن عليه تخطيطاً وتنفيذاً، يرتفعان بالمجتمع المسلم ـ ومن وراء ذلك بالأمة المسلمة ـ إلى حيث تودِّع حالة الضعف والتبعية وعدم الاستقلالية في صنع القرار، وتنهضُ من العِثار الذي ألم بها، فتمتلك الإرادة والتحرك بدوافعها الذاتية تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وتمتلك ـ بجانب ذلك ـ القدرة الذاتية التي تحقق لها ـ بعون الله ـ ما تريد.

وما نعنيه من سورة الأنفال هو قوله تعالى في الآية الرابعة والثلاثين بشأن المشركين وما ينتظرهم من سوء العاقبة بشركهم وضلالهم: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

إنهم يدَّعون عمارة المسجد الحرام، ولكنهم يصدون عن المسجد الحرام ـ وذلك ديدنهم مع كل بيت من بيوت الله يصدون عنه قولاً وعملاً؛ عدواناً على حملة عقيدة التوحيد ومنعاً لهم من العبادة، فضلاً عن أن تكون العقيدة هي المرجعَ والحكم، وذلكم هو الهدم الحقيقي.. فأين من حراسة عقيدة التوحيد وحمايتها في بيت الله وصيانة هذا البيت عن عبث الوثنية: هذه العمارة المدَّعاة؟

من أجل ذلك جاء التعبير القرآني ليكشف عن هذا التناقض بين الدعوى والسلوك، وليضع العقلَ ـ كما أسلفنا ـ على المسار الصحيح في مواجهة هذه الحقيقة التي تتصل أيَّما اتصال بطبيعة الصراع بين المنهج الحق القائم على عقيدة التوحيد وبين مناهج الباطل.

وإنها لشُقَّةٌ بعيدة بين البناء والهدم.

كان ذلك كله كيما تأخذ هذه الحقيقة أبعادها في حياة الأمة التي تحمل رسالة الله إلى الإنسانية جمعاء، بناءً خيراً للإنسان وما وضع تحت يده على هذا الكوكب وسُخر له في ضوء منهج كامل للحياة جاءت به معالم الكتاب الكريم، وإنماءً لكل الطاقات البشرية والمادية وكل ما يتصل بذلك، كيما تكون في خدمة ذياك البناء.

إن كل ما صنعه أولئك الكفرة في الدنيا لم يرشحهم للنجاة من عذاب الله الذي خلقهم وأعطاهم ما أعطاهم، فتبدلوا الكفر والصد عن بيت الله بتوحيده وعبادته وشكره على ما أنعم ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾. والحال هم يصدون عن المسجد الحرام.

إنها الجريمة التي استحقت هذا الجزاء؛ فمحاربة التوحيد وأهله، ومنعُ المسلمين من العبادة في المسجد الحرام: صد عن هذا المسجد، وجزاء ذلك عذاب الله يوم القيامة، ناهيك عن عذابهم في الدنيا بما كان من فتح مكةَ ـ كما يقول العلماء ـ الذي كان تحولاً عميقاً في تاريخ الدعوة والبناء والحمد لله.

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٤»

هؤلاء المشركون الذين أسلفنا الحديث عنهم فيما سبق من القول: كان من العجيب دعواهم ـ مع كل ما يقترفون من محاولة آثمة للتخذيل عن مسيرة الخير، والقضاءِ على أولئك الذين يبنون حضارة الإنسان في ظل عقيدة التوحيد ـ كان من العجيب دعواهم أنهم أهل المسجد الحرام؛ أما الذين هاجروا بدينهم درءاً للفتنة بعد أن صُدوا عن ذلك المسجدِ، وتابعوا ـ على الجهد والصبر ـ طريق العقيدة التي من أجلها رفع أبراهيمُ عليه السلام قواعد البيت ـ أما هؤلاء: فليسوا أهلَه على ما يزعمون.

ولكن الآية الكريمة في سورة الأنفال بعد أن أتت على استحقاقهم العذابَ بما كسبت أيديهم: كشفت زيف هذا الادعاء وأعلنت أن المتقين هم الجديرون بتكرمة أن يكونوا أهل المسجد الحرام؛ ذلكم قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

إن أولياء البيت هم أولئك الذين يتجهون في عقيدتهم وعملهم وممارستهم شؤون الحياة صوب مرضاة الله تعالى ربِّ هذا البيت، وذلكم هم التوافق الكامل بين الدعوى والسلوك.

أما منهج أهل الشرك: فقائم على التخالف والتناقض، ولذلك خوطب العقل السليم بربط المقدمات بالنتائج، والكشف عن العلاقة بين الحكم عليهم وأسبابه، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

هذه واحدة، أما الثانية: فنجدها في قوله جلت حكمته: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وفي عود على بدء: يبصر الناظر المتأني في كتاب الله ما نجد هنا في سورة الأنفال وبين الذي رأينا في سورة التوبة من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ من التناسق في تحريك العقل السليم ليعمل عمله، وهذا من أحقية هذا الدين. فكأن الكلمة الهادفة تقول: إذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون هؤلاء أهل البيت وأولياءه:﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ ﴾ جاء ذلك على سبيل الحصر حيث النفي المقترن بإلا؛ ولذلك قال العلماء عند تفسير هذه الآية: أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هكذا تسقط البراقع، وينكشف الزيف، وتقفنا كلمات الهداية على التناقض بين دعاوى الكفار وبين سلوكهم ومجموع تصرفاتهم على ساحة ما يدّعون، بل تظهر عوارَ هذه الدعاوى التي يقوم الدليل على ضدها.

واليوم تبدو الوقائع من صنيع أعداء الحق وهي تذكِّر بشكل فاضح على صعيد الدعاوى والواقع: بقول من قال: ما أشبه الليلة بالبارحة.. وإن كان الحاضر أكثر شدة وغطرسة وأذى من الماضي بما لا يقاس!!

ومن خلال وقائع حدثت للرعيل الأول وهو يخوض معركة البناء، يأخذ المعلم القرآني بيد الأمة إلى ساحة الوعي واليقظة، كيما تتبيَّن مواقعَ أقدامها، وهي تدفع ثمن كل خطوة تخطوها مالاً وجهداً وعرقاً وصبراً على وعورة الطريق، وكيما تكون على المحجة البيضاء في التعامل مع الحقيقة ـ كما هي ـ لا مع الباطل الذي يزخرفه أهلوه ويلبسونه لبوس الحق، حيث تكون الدعاوى الباطلة في واد، والعملُ البناء المثمر في واد.

ألا وإن هذا الإعلان الذي يحمله المعلم القرآني، نبراسٌ يهدي إلى مزيد من التشبُّثِ بالحقيقة القرآنية التي تريد من المسلمين أن يحسنوا استخدام عقولهم في

ربط النتائج بالمقدمات، وإحلال العقيدة الصحيحة محلّها اللائق في بناء الأجيال، مراعية ذلك بعلم وأمانة في وضع المناهج والتطبيق، وعدم الاغترار بالعناوين المصطنعة التي تكون في حقيقتها حرباً على عقيدة الأمة ووجودها.

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

والحمد لله رب العالمين.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٥»

يا عجباً عجباً لا ينقضي لأمر هذه الأمة المحمدية التي أكرمها الله بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وبناها من أجل ذلك بكتابه الكريم وبيانه من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان الواقع من هذا البناء بحسبان؛ وأجدر بها أن تكون قوَّامة بحق على هذا البناء، شكراً له سبحانه على هذه المنة منقطعة النظير.

أقول هذا وأمام ناظري ما سعدنا به على هذه الساحة في كلام قريب: من وضع أولئك البررة الذين طرق بهم رسول الله أبواب البناء.. أمام الحقيقة في بعضٍ من دعاوى المشركين، كيما يتبينوا وتتبيَّن الأمة من ورائهم ـ وهم يمارسون عملية البناء الكبرى ـ أبعاد تلك الحقيقة ومنطلقاتها، وكيما يحسنوا التعامل معها بوصفهم رواداً يعبِّدون الطريق لمن بعدهم؛ لأن رسالة الإسلام ليست مقصورة على زمان دون آخر، وليست محدودة ببقعة من العالم أو مكان، وفي الوقت نفسه هي ـ كما شاء الله لها أن تكون ـ منهج للحياة لا يغادر شاردة ولا واردة من كل ما يحقق بناء الإنسان والحياة على هدي عقيدة الفطرة عقيدة التوحيد، إلا جعلها تأخذ موقعها كما شاء وهو الحكيم الخبير.

وكان الواقع من ذلك بحسبان، واقع ما حدث على أرض الجزيرة من التحول، الذي رافقه تعنت المشركين وزعمُهم عمارة المسجد الحرام وأنهم أهله، ووجّهت معالم الكتاب أبناء الدعوة إلى التغيير.. التغيير المنهجي الموضوعي، الذي يعفِّي على آثار الجاهلية، ويضع كل أمر موضعه، ويحرك العقل إلى تبين النتائج من خلال المقدمات، وكان من ذلك رد هذه الدعاوى بالحجة الواضحة التي كشفت التناقض والزيف.

غير أن المشركين كانت لهم مزاعم أخرى: منها أنهم قائمون على الصلاة عند المسجد الحرام، فدعوى أنهم أولياؤه دعوى تتسق مع قيامهم بالعبادة والنسك. وجاء الرد الحاسم في الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأنفال بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ تبين الآية الكريمة أن الصلاة التي كانوا يصلونها عند البيت لم تكن إلا مكاء وتصدية.. هكذا على سبيل التعبير بالنفي المقترن بإلا ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ والمكاء والتصدية ـ روى الطبري وغيره كما عن كثير من الصحابة والتابعين ـ: التصفير والتصفيق، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت قريش تطوف البيت عراة تصفر وتصفق، والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق» وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون» رواه ابن أبي حاتم. وذكر الحافظ ابن كثير عن عكرمة قال: «إنهم كانوا يطوفون بالبيت على الشمال» قال مجاهد: «وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته».

أما الزهري رحمه الله: فقد فسّر المكاء والتصدية بالاستهزاء بالمؤمنين، وفسّر عبد الرحمن بن زيد التصدية بالصد عن سبيل الله عز وجل.

ولا تعارض بين هذه الآراء فهم يصفقون ويصفرون مستهزئين بالمؤمنين صادين لهم عن سيل الله، صورةٌ عن الجاهلية والعبث الذي لم يدع زيادة المستزيد..

أما بعد: أرأيت إلى هذه العناية بكشف الحقيقة ليكون المسلمون على بينة من أمرهم من خلال الواقع والممارسات العملية فيه، هذه العناية نبصرها في سورة الأنفال سورة الجهاد، وإعطاء كل قضية نصيبها من التقويم، تثبيتاً على الحق، وتصويباً للخطأ.. أليس ذاك دليل النظرة المتكاملة في المنهج الرباني، وأن على المسلمين أن يكونوا على ذكر من العقيدة حين يمارسون مهمتهم في البناء وحين يواجهون تحديات الأعداء، وأن يكونوا على مثل الجبال الرواسي في الانتصار للحقيقة والثقة بما هم عليه ضد الباطل والزيف.

ويكون هذا بعضاً من عطاء الماضي التقليد للحاضر العتيد، حين تُفقه الوقائع بعقول متفتحة وقلوب حاضرة مع الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ممارسة الواقع.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٦»

لا يعوزك ـ وأنت تصطحب الكلمة الهادية ـ أن تقع على ما كشفتْ عنه من أن الممارسة العملية في رحلة الدعوة إلى الله وإحكام البناء على قواعدها: كانت من أولئك البررة الأولين بحسبان، جلاءً للحقيقة التي لا بد أن تنعكس دلالتها على مواقف المسلمين من دعاوى الكفار، سيما وأن المسلمين حملة رسالة تنأى بهم عن العبث والتناقض، وتحملهم بشكل تلقائي إلى ميادين المعرفة والجهاد.

ولما كان الاقتناع الفكري لبنة منظورة في مقدمات العمل والتحرك المجدي، فإن القرآن الكريم لم يكتف وهو يردُّ مزاعم المشركين عمارةَ المسجد الحرام، بأن نفى ذلك عنهم، وكشفَ عن تناقض سلوكهم مع ما يدَّعون ويزعمون، وحكم على أعمالهم بالحبوط وأنهم في النار خالدون.. لم يكتف بهذا بل بيَّن بعد ذلك أن العمارة الحقيقية لمساجد الله وراء ذلك، وأن من يعمرونها هم المؤمنون الصادقون، الذين يجمعون إلى الإيمان عبادةَ الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وتجدهم وخشيةُ الله تملأ قلوبهم، ومن أجل ذلك كانوا هم المهتدين.

ذلكم قوله تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ أجل: المؤمنون بالله واليوم الآخر والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة، لا الكافرون الجاحدون الذين يطوفون بالبيت عراة وهم يصفرون ويصفقون وفي المجتمع يتظالمون.

والأقوياء الأمناء: الذين لا يخشون إلا الله والمتخاذلون العابثون: الذين يستخذون أمام الخرافة والكهانة والأباطيل.

هؤلاء المهتدون هم المؤهلون لعمارة بيوت الله التي قامت على وحدانية الله ونبذ الوثنية والأوثان.

إن إتيان الآية على ذكر بعضِ أركان الإيمان، وبعضِ أركان الإسلام وخشيةِ الله عز وجل: دليلُ الارتباط العملي بين المسجد وبين رسالة المسلم وما الذي يجب أن يكون عليه في حياته الخاصة، وفي علاقته بالمجتمع، وكيف أن ذلك كلَّه لا بدَّ أن تصحبه خشية الله التي يُضمن معها الإخلاص والاستمرار. وإذا نظرنا إلى الواقع من خلال ذلك: أمكن أن نبيّن أمرين اثنين:

أولهما ـ الحرص على أن تأخذ الحقيقة أبعادها عن اقتناعٍ وتبيُّنٍ لما يجب من التوافق بين ما يُدّعى وبين السلوك. وذلك ما نجده في الآيتين الكريمتين في سورة التوبة حيث نفى القرآن عمارة مساجد الله عن المشركين وبيَّن سبب ذلك. وفي المقابل أثبت الشرائط التي لا بد أن تتوافر فيمن يراد لهم أن يقوموا بعمارة تلك المساجد عمارةً حقيقيةً هي صورة عن العقيدة وانعكاساتها على منهج الحياة ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾[التوبة:١٧-١٨] .

فانظر إلى هذه المقابلة في هذا الكلام المعجز الذي يهدي دائماً للتي هي أقوم!

ثانيهما ـ أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، والمسلمون اليوم ـ ممثلين في أهل الصلاح والإصلاح ـ وهم يتجهون صوب البناء الحقيقي الشامل، ويشهدون تحسبات الأعداء من تباشير اليقظة، التحسباتِ التي تَخرجُ إلى حيِّز الواقع عدواناً سافراً حيناً، ومُقَنَّعاً حيناً آخر.. إن المسلمين وهم يتجهون صوب استئناف المسيرة الخيرة ضمن هذه الظروف والمؤشرات: مدعوون إلى إحكام الربط بين حلقات التاريخ، وإلى مراجعة صحيحة لذلك التاريخ، وخصوصاً تلك الحقبة التي حمل الرعيل الأول فيها عبء البناء، فلقد كان العبء ـ بجانب الاقتناع ـ عملاً دائباً، وجهاداً مستمراً على أرض صلبة سداها ولحمتها العقيدة الراسخة التي تقوم عليها بيوت الله، لتكون روحُ المسجد حياة كل جانب من جوانب الواقع في مسيرة الحياة وخاصية النماء لكل الطاقات التي تتحرك في ظل هذه العقيدة.

من لمحات الإعجاز..
على طريق البناء على القاعدة الإيمانية

«٧»

من لمحات الإعجاز في الكتاب الكريم: أنه كلما أوغل المؤمن في فهمه وتدبر آياته، تبدّى له ما يؤكد أن الهداية في القرآن تستعلي على محدودية الزمان والمكان، وأن معالمها الخيرة هي النورُ الذي يضيءُ المسالك، مهما أحدث التطور من جديد في حياة الناس وممارساتهم اليومية على كل صعيد.

أقول هذا بعد أن وقَفَنا المعلم القرآني الهادي المكين، وفي واحدة من آيات سورة التوبة وهي سورة مدنية كلها، على صفات من يكرمهم الله بعمارة مساجد الله، ذلكم قوله جلت قدرته بعد أن نفى عمارة المساجد عن الكفار: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[التوبة: ١٨].

وإذا كنا على ذكر من رسالة المسجد في الإسلام وأنها تتناول ـ فيما تتناوله بالتبليغ والتربية ـ الإعدادَ المتكامل الشامل للفرد والجماعة كي تكون شريعة الله هي المحكّمة في المجتمع.. إذا كنا على ذكر من ذلك وكنا غير غافلين عن واقع المسلمين اليوم.. أدركنا الأهمية البالغة لوصف من يعمرون مساجد الله بالإيمان بالله واليوم الآخر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وخشية الله وحده دون سواه.

فالمؤتمنون على رسالة البناء التي تشيعها روح المسجد والقائمة على عقيدة التوحيد وأنه لا معبود في الاعتقاد والتشريع وتنظيم السلوك إلا لله عز وجل.. المؤتمنون على هذه الرسالة هم أولئك الذين خالطت بشاشةُ الإيمان قلوبَهم، واقترن العمل في سلوكهم بالإيمان، وكانوا بإيمانهم ونفاذ بصيرتهم أقدرَ من كل المعوقات والصوارف ترغيباً أو ترهيباً؛ لأنهم ـ مع الأخذ بالأسباب ـ لايخشون إلا الله.

والأمة لا تنقضي حاجتها إلى تربية الأجيال وإعدادها على هذه الشاكلة بما يتلاءم مع العطاء الزمني وطبيعة المرحلة، كيما تكون روح المسجد ضياءَ كل خطوة يخطونها على طريق البناء، وقدرةً فعالة مؤثرة تنمي الإمكانات المنتجة على كل صعيد، دونما جهل أو تجاهل للواقع خاصّه وعامّه.

وقوله تعالى في خاتمة صفات من يعمرون مساجد الله ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ يدلُ دلالة واضحة على الشمول الذي نشير إليه إذ إن الهداية لا تنحسر عن أي باب من أبواب الخير للفرد والمجتمع والأمة في بُناها الروحية والمادية، وما تحتاج إليه من مقومات التمكين في الأرض في ثقافتها وقضاياها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وقدرتها الذاتية على التعامل باللغة المناسبة في حالات السلم والحرب، و«عسى» في القرآن الكريم تفيد التحقق؛ فالقرآن بهذا يشهد لمن توافرت فيهم تلك الخصال أنهم من المهتدين.

إنها ـ كما أشرت من قبل ـ لمحة من لمحات الإعجاز نبصرها في حاجة الأمة الملحة إلى تطبيق هذا اللون من الهداية في حياتها، وهي تبدأ مرحلة جديدة تأتي في أعقاب كثير من المتغيرات في عالمنا الكبير.

* * *

المسجد.. والبناء والقاعدة الإيمانية للعمل

«٨»

الارتباط الذي رأينا مؤشراته ـ فيما أسلفنا ـ بين العقيدة وعمارة مساجد الله، بل بين العقيدة والعمل الذي هو من حقها، وبين عمارة مساجد الله كما جاء في سورة التوبة... هذا الارتباط يزيدنا استمساكاً بما ألمحنا إليه في أكثر من مناسبة، وهو ضرورة أن يكون للمسلم طريقته المتميزة في التفكير. وهذا الأمر ليس بدعاً نبتدعه من عند أنفسنا، وإنما هو دلالات النصوص والتطبيق العملي للإسلام بدءاً من الصدر الأول حيث كان رسول الله ﷺ، يبني كلاً من المسلم والمسلمة على هذا التميز في طريقة التفكير والاستقلال في الحكم على الأشياء من خلال العقيدة الراسخة، الأمر الذي يجعل أقوال وأفعال الإنسان المسلم وسائر تصرفاته، صورة عملية لما يمليه التوحيد والعبودية لله عز وجل.

أما العدول عن ذلك: فهو لبس المرقّعيات من هنا وهناك، وذلك من بعض الظواهر المرضيّة في عديد من بلاد المسلمين، حيث ترى التبعية البلهاء، والبعد عن الذاتية وصدق الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس!!

في ضوء ذلك يتبدى لنا سمو ما دعا إليه النبي ﷺ ـ وهو يبين عن الله ما أراد ـ من بناء المساجد وعمارتها العمارة الحقيقية للعبادة والذكر والعلم النافع، وتهيئة المناخ النفسي والواقعي لتكون شريعة الله هي التي تحكم المجتمع، في كل مناحي الحياة، دونما استثناء، وإنما يتحقق ذلك بأن تشيع روح المسجد في جزئيات البناء وكيانه، وأن توظف بدقة وموضوعية في مناهج الإعداد والتكوين، وتحديد الصيغة الحضارية التي يرتاد المسلمون سبلها في ظل دعوة الإسلام. ففي شأن العمارة المادية للمسجد، روى البخاري ومسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى، بنى الله له بيتاً في الجنة**» وفي رواية: «**بنى الله له في الجنة مثله**» .

وأخرج الترمذي عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من بنى لله مسجداً صغيراً كان أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة**» .

وعند النسائي عن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ قال: «**من بنى لله مسجداً ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة**» .

أما بشأن العمارة المعنوية التي من أجلها تبنى هذه المساجد: فمما ورد من الأحاديث بياناً للآية الكريمة التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث، ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾** ...الآية» . أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح**» متفق عليه.

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما: «**رجل قلبه معلق بالمساجد**» .

ألا إن ذاتية التفكير تقتضينا أن نصوغ مقولة بناء المساجد وعمارتها العمارة الحقيقية ـ بدقتها وشمولها ـ صياغة عملية يحكمها المنهج الرباني، تصل بنا إلى حيث يسهم ذلك في استئناف المسيرة الخيرة ومواجهة التحديات.

* * *

البناء والواقع.. والحقيقة القرآنية في أهمية القاعدة الإيمانية

«٩»

مع كل آية من كتاب الله ـ وعند كل واحد من معالمه ـ تبصر اتصال الحقيقة القرآنية ـ وهي ترسي قواعد الهداية والبناء الخيِّر النافع في كل ميدان ـ بالممارسة الواقعية التي يراد تثبيتها إن كانت تنتسب إلى الصواب، والتحوُّل عنها إن كانت من الخطأ وإليه.

فالحقيقة التي طرحها القرآن في شأن عمارة المساجد، من نفي العمارة المدَّعاة من أهل الشرك ثم حصرِ العمارة ـ التي لها وزنها عند الله ـ بمن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله، وبيان أن من كانوا على هذه الشاكلة هم المهتدون.

هذه الحقيقة بشعبيتها نفياً وإثباتاً: صَحبَها على صعيد الواقع بعضُ الدعاوى، وكان في جواب القرآن عن ذلك مزيد من الوضوح يكفل أن تأخذ الحقيقة وجودها العملي في حياة المسلم، وهو يعمر الأرض ويعمل على أن تكون كلمة الله هي العليا.

ذلك بأن رسالة الإسلام التي يأتي المسجد في مقدمة ما يجب عمله لتحقيقها ـ كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام فور حط الرحال في المدينة بعد الهجرة ـ تدعو إلى ما يحقِّق سريان روح المسجد في كيان المجتمع ومؤسساته الثقافية والاجتماعية والسياسية وغيرها؛ الأمر الذي يحول دون أن يكون خطاب الدعوة الإسلامية ـ وهي تعلي شأن المنهج الرباني ـ كلماتٍ مجردة تذروها الرياح، ولكن بناءً واضح المعالم ثابت الأركان، هو على وجه اليقين، ترجمة لمضمونات ذلك الخطاب

إلى واقع حي يصحبه وضوح الرؤية في جميع الميادين، واقع يكون من ثمراته ما يجب من إحكام بناء الفرد والأسرة والمجتمع إحكاماً يتحقق معه أن يكون القدر المشترك على هذه الساحة: عنواناً على صورة عملية لتلك المضمونات.

ولعل من الخير أن نعرض لواحدة من تلك الدعاوى التي سلفت الإشارة إليها، وموقف القرآن منها.

فبعد الآية التي كنا بصددها من سورة التوبة، والتي اختتمت بقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

إن رسالة البناء المرضيِّ لله ولرسوله في الإسلام تقتضي أن يكون العمل قائماً على عقيدة التوحيد ـ كما أسلفنا من قبل ـ؛ ولذلك آذنت الآيات بنفي أن تكون الأعمال المبتورة عن تلك العقيدة في حيز القبول عند الله؛ إذ المقبول عند الله وراء ذلك، فقد روى أهل التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل هذه الآية ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[المؤمنون:٦٦-٦٧].

يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم؛ لقد كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبيَّ ﷺ.

فأوضح لهم ولغيرهم أيَّ الأعمال خير، وخيَّر الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيتَ، وقيامهم على السقاية.

وأكَّد أن ذلك كلَّه لم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به، وعبادة الأوثان من دونه، وتحكيم الأهواء وعوادي الجاهلية في حياتهم، وإن كانوا يعمرون بيته - سبحانه - ويحرمون به ﴿ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[التوبة:١٩] .

والظالمون هم أولئك الذين زعموا أنهم أهل العمارة.

وكان من إعطاء القضايا حدودها الصحيحة، وأبعادها الممتدة هنا وهناك قطعاً لدابر التخالف بين الأسماء والمسميات: أن سماهم ظالمين بشركهم؛ من أجل ذلك لم تغن عنهم تلك العمارة المقطوعة عن الإيمان شيئاً، ويوم القيامة يردُّون إلى أشد العذاب.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

القاعدة الإيمانية..
وإقامة الحجة على المشركين.. والبناء

«١٠»

قضية الحوار التي حملتها إلينا معالم القرآن الكريم لتبيين الحقائق وجلائها من خلال الرد على أباطيل المشركين وأعداء الإسلام ـ عموماً على تعدد الصور والألوان ـ بالحجة الدامغة والسلطان المبين؛ هذه القضية كان لها دورها في التحول الجذري الذي طرأ على الإنسان يوم خوطب بدعوة الإسلام وأسعده الله بحسن الاستجابة لها.

وإنما كان ذلك: لأن كل نقض لما كان عليه أهل الشرك وما هم عليه دائماً في مختلف العصور والبيئات، في مجال البنية الفكرية عند الفرد والجماعة، أو في مجال البنية المادية وعناصر التكوين في المجتمع.. عروة مباركة قوية في سلسلة التكوين الثقافي والفكري عند المسلم، ناهيك عن أنه يعني لوناً من ألوان الانتصار للإنسان ورسالته الخيرة في البناء الذي لا ينأى عن الفطرة ولا يعوزه مع كل اللبنات المادية: استمساكٌ بإنسانية الإنسان، وتحكيم أخلاقية العقيدة في سلوكه ومراعاة الحوار النقي السليم.

ولقد كان من آثار ذلك عند أولئك الذين حملوا عبء البناء على أنقاض الجاهلية بكل مقتضياته وما يولّد من تبعات.. كان من آثار ذلك عندهم مزيدٌ من تحرر المسلم من أوضار تلك الجاهلية وعقابيلها، وتنميةٌ لقدرته الذاتية في التفكير وسعة الصدر، والحرص على سلامة المنطلقات ووضوح الغاية.. نتيجة تحرره من الخضوع إلا لله عز وجل.

وعلى صعيد الحركة ووضع المبادىء موضع التطبيق: تبع ذلك تهيئة المناخ المناسب، كيما يسير المجتمع في الطريق الآمنة لبناء وجود ذاتي قوي، بعيد عن عناصر الهدم التي تنطوي عليها الجاهلية في الثقافة والاجتماع والاقتصاد، وكل ما يمت إلى ذلك بصلة.

وأقرب النماذج لهذا الذي قلناه في مقدمة الحديث: ما جاء في سورة التوبة ـ كما رأينا من قريب ـ من رد لواحدة من دعاوى المشركين وإنكار ذلك عليهم وهو قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

لقد صُدِّر هذا الرد على المشركين بالاستفهام الإنكاري «أجعلتم» وهذا الاستفهام الإنكاري يشي باستثارة للعقول، إن كانت هنالك عقول!!

فكيف تستوي سقاية الحاج ـ أي الحجيج ـ وعمارة المسجد الحرام على أساس من الشرك والجحود برب البيت الحرام الذي رفع إبراهيم عليه السلام قواعده ليكون مثابة التوحيد.. كيف يستوي ذلك مع الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله..

هذا على تأويل من ذهب إلى أن «من آمن» تعني إيمان، من آمن، وذهب البعض إلى تأويل المصدر باسم الفاعل ويكون المعنى: أجعلتم ساقي الحاج عامر المسجد الحرام بلا عقيدة صحيحة، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟!

وحظ الفئة المؤمنة التي تضرب في أرض البناء تحقيقاً لرسالة الإسلام: حظٌ كبير من جلاء هذه الحقيقة وأمثالها، فمعالم القرآن يستعلي ضياؤها على التحديد لأنها من كلمات الله وكلمات الله لا تنفد والله الموفق.

* * *

المخالفة عن القاعدة الإيمانية الظالمون.. والبناء

«١١»

في الآية الكريمة التي أسعدنا ضياؤها على ساحة التقرير الإيماني واستثارة العقل لمعرفة الحقيقة: بجانب نعيها على المشركين جعلَهم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بلا عقيدة: كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله..

في هذه الآية بجانب هذا الإنكار رداً لتلك الدعوى.. تحريكٌ للملكات الفاعلة أن تعمل عملها، وزناً للأمور ووضعاً لها في نصابها الصحيح.

ولذلك ـ والله أعلم ـ جاء بعد الاستفهام الإنكاري في قوله جلت حكمته: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾. قوله سبحانه: ﴿لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ تقريراً واضحاً لهذه الحقيقة بنفي التسوية المدّعاة، وختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

لا يستوون عند الله، ومن سلامة العقل وحسن استخدامه أن يَحكُمَ بأنهم لا يستوون، قد يحكم بالتسوية ـ بل حكم بها ـ أولئك الغافلون الذين لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها. ولكن حكمهم شيء والحقيقة الناصعة شيء آخر.

الإيمان بالله، حيث التحرر من عبودية العباد والخضوع لجماد أو حيوان وما إليهما مما يصنعه العابد نفسه أو يُصنع له أو يُدَلُّ عليه.. وحيث التساوق مع الفطرة، والاستمساك بعرى الكرامة الإنسانية، والمعزة التي تحرِّم العبودية إلا لله.

والإيمان باليوم الآخر؛ حيث تتحقق العدالة المطلقة، وتجد كل نفس ما كسبت، ويسعد المؤمن بحوافز العمل الصالح كدّاً ودأباً بما ينفع نفسه ومجتمعه وأمته.. ناهيك عن كون هذا الإيمان نتيجة طبيعية للإيمان بالله.

والجهاد في سبيل الله؛ وما أدراك ما الجهاد في سبيل الله، برهان الصدق، ودليل الإيمان، وطريق تحقيق البناء الذاتي للأمة، وحارسها ضد العاديات..

هذا كله على ساحة الإيمان والجهاد!! هل يستوي مع أي عمل مهما كان شأنه حين يكون مبتوراً عن العقيدة الصحيحة، بل هو ذو نسب إلى تلك الكلمة الخبيثة التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾[ابراهيم:٢٦]، وإذا كان العمل ذا نسب إلى الكلمة الخبيثة: فهو عند الله من نوعها، لأنه عديم الأصل، مقطوع عن العقيدة التي تضعه على طريق الغاية الحقيقية للحياة، وتجعل له ثقيل يوم توزن الأعمال بالقسطاس المستقيم عند الله.

فالكلمة الخبيثة كتلك الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض فما لها من جذر ولا قرار.

وهذا النوع من الأعمال: كذلك مجتث مبتور ماله من وزن ولا قرار.

من أجل ذلك ختمت الآية بعد التقرير الحاسم بخبث تلك الكلمة من طريق هذا التشبيه الواضح.. ختمت بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

لقد فتحت أمامهم أبواب الهداية فأعرضوا، وأقيمت لهم الأدلة فتعنتوا وجَحَدوا وذلك ظلم ما بعده ظلم، وإن الشرك لظلم عظيم والله لا يهدي القوم الظالمين.

إن هذا العطاء من خلال الحوار في الآية: قائم لنا ولمن بعدنا كما كان لأولئك الذين ارتادوا للإنسانية الطريق، طريق البناء السليم الذي لا ينقض على رؤوس أصحابه؛ لأنه لا يحمل بذور هدمه ونقضه ولكن يحمل مقدِّمات استمراره ودوام إحكامه بعون الله رب العالمين .